من أحسن القصص

الحب أقوى من الموت

للكاتب الروسي ديمتري ميرجكوفسكي
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

تعريف بالقصة

كان دمتري . س . ميرجكوفسكي أحد كتاب الروس المحدثين الذين كتبوا فيما وراء بلادهم ، وربما فعل هذا لأنه كان أقل عصبية من زملائه الروسيين . ولما رأى أن أدب بلاده آيل إلى الانحطاط والتفكك ، لفت نظر الكتاب إلى الرمزية الفرنسية كوسيلة لانتعاش الأدب وإحيائه ، ولمح لهم إلى الأسلوب الحزن المكتئب الذي يصورون به آراءهم وإحساسهم نحو حياة هذا الوقت ، وقد أحس سحر المخلفات القديمة ، ولذة ما في القصص التاريخية من تفاصيل غريبة وتصاوير دقيقة تناسب عبقريته ونبوغه ، وها هو ذا يقدم لنا في قوة وبراعة « الحب أقوى من الموت » ، ومرجع هذه القصة إلى الأصل الإيطالي لقصة جنيرنا كما ظهرت في : «The Novellae Do - menico Manni» من آثار القرن الثامن عشر الفلورنسي ، وقد عمد ميرجكوفسكي إلى كتابة القصة من جديد معتمداً على أسلوبه الخاص

المترجم

كانت أسرة « ألمري » السالفة — من أهالي فلورنسا — في قديم الزمن تتجر في نوعين من التجارة مختلفين ، فقد راح البعض منهم بقدس « سانت أنتوني » حي القصابين ، على حين اتخذ الآخرون شعاراً رسم عليه صورة حمل إذ كانوا يتجرون في الصوف

وقد احترف الأخوان جيوفاني وماتيو ألمري — كأسلافهم الأولين — هاتين التجارتين ، فامتهن جيوفاني تجارة اللحوم في مكان السوق القديم The Marcato Vecchio واتخذ ماتيو مصنعاً لغزل الصوف في « آرنو » ، وكان الناس يتقاطرون على محل جزارة جيوفاني ، لا لأنهم يجدون لديه أحسن اللحوم من خنزير طازج وعجل طري وأوز سمين فحسب ، ولكن لأنهم — إلى هذا — يحبون صاحب المتجر لطباعه المرحة البهيجة ولسانه الحلو المعسول

وما من أحد يستطيع أن يتبادل النكات المرحة وباقي اللمح الطريفة على السابلة ، أو الجيران ، أو المشترين في حذق ومهارة كما كان يفعل ألمري القصاب ، وما من أحد كان يقدر أن يتحدث بمثل تلك الزلاقة والإلمام عن الأحداث السياسية للشعب الفلورنسي أو عن تاريخ سلاطين آل عثمان أو عن مؤتمرات ملوك الفرنسيس

وما كان يسوء مزاح القصاب وهزله من الناس إلا قليلاً ؛ وكان ينطبق عليهم المثل « إن المزاح لا يسوء الجار الطيب ، وإن اللسان لحاد مرهف في المزاح كالموسى »

وكان أخوه ماتيو — تاجر الصوف — على خلق مختلف : كان حاد الذهن في دهاء ومكر ، سياسي الطباع ، صموتاً عبوساً ، وقد اطرد نجاح أعماله أكثر من جيوفاني المهمل الهذار ، وكان له مركبان يتادران — كل سنة — ميناء « ليفورنو » محملين بالصوف إلى ثغر القسطنطينية . كان وثاباً طموحاً سلك في سبيل إنماء ثروته سلوك السبيل إلى منصب في الدولة كبير ، وقد انخرطا في سلك الطبقات الراقية والجامع الأرستقراطية أو « الناس السمان » كما كان يطلق عليهم آنئذ

فى فلورنسا . وقد أمل أن يسمو بأسرة ألمرى إلى أعلى مرتبة اجتماعية . بل ربما يرى اسمه محلقاً على أجنحة شهرة خالدة وصيت باق ، ومضى ينصح لأخيه أن يهجر مهنة الجزارة لأنها مهنة ليست راقية وأن يضم أمواله إلى رأس مال ماتيو ، بيد أن جيوفانى أبى أن يأخذ بنصيحته إذ كان يخشى أخاه بقدر ما يعجب بمقدرته ، وراح يقول لنفسه دون تصريح « لسان معسول وقلب خؤون »

وفى يوم قائظ عاد جيوفانى إلى مثواه من دكانه تعباً مكدوداً، ومن ثم أترع بطانه بعشاء ثقيل كعادته وجرع كأ كبيراً من خمر مثلوجة ؛ فأصابته فجاة سكتة قلبية ، إذ كان بدين الجسم فى إفراط ، غليظ العنق فى قصر . فقضى نحبه ليلاً دون أن يجد الفرصة لإشهاد أحد أو كتابة وصية . فسلمت مونا أرسولا أرملته — وهى امرأة طيبة القلب فى سذاجة وبلاهة — مقاليد تجارة زوجها إلى أخيه ماتيو الذى عرف كيف يخدعها بدهائه وكلماته المعسولة ؛ إذ استطاع أن يقنع المرأة الساذجة أن زوجها قد ترك « دفاتر حساباته » مضطربة نتيجة إهماله وتقصيره وأنه مات وهو على شفا الإفلاس وأنها إذا أرادت أن تنقذ البقية الباقية فعليها أن تغلق دكان اللحوم فى السوق القديم . وقد تناقلت أقاويل السوء أن ماتيو الداهية قد خدع الأرملة دون رحمة ليدير رأس مال جيوفانى مصانع الصوف تحقيقاً لرغبته القديمة . على كل شىء واحد كان واضحاً جلياً ، هو أن أعمال ماتيو قد تقدمت تقدماً كبيراً منذ ذلك الحين ، وبدلاً من مركبين اثنين مضى الآن يرسل إلى القسطنطينية خمسة أو ستة مشحونة بأفخر أنواع الصوف التوسكانى. وسرعان ما أضحى صاحب أكبر مصنع للصوف فى فلورنسا .

وكان الراتب الذى أفرده لأرملة أخيه كل شهر جد ضئيل ؛ حتى أنها قاست أسباب الحرمان والفاقة لا سيما وهى ليست وحيدة ، إذ كان لها ابنة صغيرة عزيزة محبوبة اسمها جنيرفا . وما كان أحد من طلاب الزواج فى ذلك الوقت يقبل على العذارى اللواتى بدون صداق ، كما هو الحال الآن . بيد أن اليأس لم يتسرب إلى قلب مونا أرسولا المؤمنة الورعة إذ أخذت تصلى بحرارة وإخلاص لكل قديسى الله ورسله خصوصاً « سانت أنتونى » حامى القصابين فى الدنيا والآخرة . كان أملها قوياً فى أن الله — نصير الأرامل واليتامى — حتما سيرسل إلى ابنتها التى لا تملك بائنة ، زوجاً صالحاً ثرياً .

وكان ثمة سبب آخر يبشرها بقرب تحقيق ذلك الأمل ، هو جمال جنيرفا وسحرها . حتى أنه لما يصعب تصديقه أن جيوفانى البدين المهذار ينجب تلك الابنة الطرية الفينانة . وكانت جنيرفا دائماً ترتدى ثوباً أسود فضفاضاً وتضع حول عنقها الطويل الجميل قلادة من اللؤلؤ تتوسطها ياقوتة أثرية صفراء ، وتربط رأسها بعصابة من الموسلين تصل حتى منتصف جبينها شفافة حتى أن المرء ليرى خلالها خصلات شعرها الذهبى الباهت ؛ وكان وجه جنيرفا هو وجه العذراء التى صورتها ريشة الرسام فيلبى لبى ، العذراء الطاهرة التى تبدت للقديس برنارد فى الصحراء ، وبأصابع كالشمع قلبت صفحات كتابه ...

كانت شفتاها اللتان كشفتى الطفل ، ونظراتها الهادئة الحزينة وحاجباها الخفيفان الماليان ، كان كل أولئك يحمل أقصى معانى البراءة والطهر . ومع أنها كانت ندية كالزهرة شابة كالربيع إلا أن منظرها كان يدل على ضعفها وقصر عمرها كما لو كانت لم تخلق للحياة

وعند ما كانت ابنة القصاب تتخذ سبيلها إلى الكنيسة فى هدوء واحتشام بأعين مسبلة وبكتاب الصلوات فى يديها كان الشبان المسرعون إلى وليمة أو رحلة صيد يوقفون خيلهم ويعلو وجوههم نوآ أمارات الاهتمام ، ويختنق هزلهم وضحكاتهم ويغضون يتبعون جنيرفا الجميلة أبصارهم

وعند ما سمع العم ماتيو كلمات المدح والإطراء تنسب انسياباً حول أخلاق ابنة أخيه الفاضلة ، حزم أمره على أن يزوجها من فرنسسكو ديلا جولانتى أحد سكرتيرى الجمهورية وكان رجلاً شيخاً ، ولكنه كان محترماً من الجميع يرتبط بصلات وطيدة مع عظماء المدينة المبرزين فى ذلك الحين ، وكان فرنسسكو أحد تلاميذ المدرسة اللاتينية الكبار ، وقد دأب على أن يكتب تقاريره ومضبوطاته بالأسلوب الفلسفى الذى كان لليفى وسالوست ، وكان بطبعه عبوساً متجهماً ؛ بيد أنه كان أميناً (كرومانى قديم) لايحمل سلوكه منفذاً للوم والتعنيف ، وكان وجهه كوجه أحد أعضاء « السناتو » أيام الجمهورية ، وقد عرف كيف يرتدى عباءة موظفى فلورنسا الطويلة الحمراء القاتمة كأنها «روب» رومانى حقيق «Areal Roman Toga»

وكان يحب اللغات القديمة حباً جماً حتى أنه حينما كانت اللغة الإغريقية شائعة فى توسكانيا وحينما جاء المعلم البيزنطى « عمانوئيل كريزو لوراس » من القسطنطينية يحاضر فى قواعد اللغة الإغريقية فى الاستديو (اسم الجامعة آنذاك) لم يستنكف أجولانتى بالرغم من سنه المتوسطة ومركزه كسكرتير فى الجمهورية الفلورنسية أن يجلس جنباً إلى جنب مع الصبية الصغار على المقاعد المدرسية ، وقد أتقن اللغة الإغريقية حتى استطاع أن يقرأ النسخ الأصلية لفلسفة أرسطو ومحاورات أفلاطون . على الجملة لم يكن يأمل تاجر الصوف (وهو الداهية الطموح) فى شخص ينتسب إليه أكثر نفعاً وأسمى مركزاً من هذا . وقد تعهد ماتيو أن يهب ابنة أخيه بائنة كبيرة على شرط أن ترتبط اسم أجولانتى باسم ألرى

وقد صادف ذلك طلباً هوى فى فؤاد فرنسسكو ؛ غير أن جنيرفا مضت تمهل عمها وتؤجل موعد الزفاف من سنة لسنة ، وحينما سألها عمها حزم أمرها أعلنته بأن ثمة رجلاً آخر تحبه أكثر من أجولانتى . وبالرغم من خوف مونا أرسولا ودهشتها ، فقد صرحت باسم أنتونيو روندنيللى المثال الشاب الذى يقوم مصنعه فى أحد الشوارع الضيقة فى « بونت فيكيو »

وقد تعرف أنتونيو بجنيرفا فى بيت أمها منذ أشهر قلائل . فقد استأذن أن يصنع تمثالاً من الشمع لرأس الفتاة الصغيرة ابتغاء بث جمال جنيرفا فى صورة بارزة للشهيدة المقدسة باربارة أوصاه بها راهب ثرى يثوى فى إحدى ضواحى المدينة . ولم تشأ مونا أرسولا أن ترفض للمثال الشاب طلباً كهذا لوجه الدين . وإبان العمل وقع المثال فى حب نموذجه الجميلة ، ثم تلاقيا فى المحافل الشعبية والمجتمعات الشتوية حيث كثيراً ما كانت تدعى جنيرفا بحرارة وإلحاح ، إذ كان جمالها من أقوى أسباب الترحيب بها فى كل حفل أو وليمة

ولما أن جهرت مونا أرسولا — مع إبداء أسفها واعتذارها — إلى ماتيو بأن جنيرفا لها خطيب آخر تحبه ، وحينما ذكرت اسم انتونيو روندنيللى ، تمالك نفسه وكبح جماح غضبه المتضرم وسدد إلى مونا أرسولا نظرات وادعة وقال فى لين وهدوء :

— لو لم أسمع ياسيدتى ما قلته الآن بأذنى

ما كنت أصدق أبداً أن امرأة حكيمة فاضلة مثلك تعيرنا أذناً أو ترضى قليل الاختبار مثل هذا أدنى اهتمام. لست أدرى كيف يحدث مثل ذلك فى هذه الأيام؟ ولكن فى عصرنا لم يكن للبنت أى رأى وليس لها أن تلفظ أى كلمة فى اختيار زوجها. فى كل شىء كن يطعن آباءهن، وأولياء أمورهن. تبصرى قليلاً فى الأمر. من هذا الأنتونيو التى شرفته ابنة أخى باختيارها؟. أيحتمل أن تكونى غير عالمة أن المثالين والشعراء والممثلين والمطربين الجوابين إن هم إلا أناس لا يملكون ما يفعلون غير هذا، ولا يصلحون ألبتة لأعمال مثمرة مفيدة؟. إنهم أخف الناس عقولاً، وأكثرهم وهماً وخيالاً فى هذه الدنيا الواسعة. إنهم سكيرون بوهيميون، كسالى ملحدون، مترفون مبذرون لأموالهم وأموال غيرهم. أما عن أنتونيو فلا إخالك لم تسمعى بكل ما تعرفه فلورنسا عنه. وسأذكر لك ببساطة إحدى ميزاته. تلك السلة المعلقة بحبل فى دكانه، فى تلك السلة يضع أنتونيو كل المال الذى يتزع دون حصد ولاعد. وكل من يرغب، سواء أكان تلميذاً له أم أحداً من معارفه، فى استطاعته أن يأتى وينزل السلة دون أن يعلم صاحبها أو يستأذنه، ويأخذ ما يشاء من المال، نحاس أو فضة أو ذهب. فهل تحسبين ياسيدتى أنى أضع مالى — البائنة التى وعدت ابنتك — فى يد مثل ذلك المعتوه؟

« وليس هذا كل ما فى الأمر. ألا تعلمين أن أنتونيو ينطوى على إلحاد خفى وإباحية مستبدة غرسهما الشيطان فى قلبه، فجعله لا يذهب إلى الكنيسة ويسخر بالسر المقدس ولا يعتقد فى الله. لقد أنبأنى بعض الأخيار أنه يعبد تلك التماثيل والأوثان الرخامية التى تمثل الآلهة والأرباب، والتى ابتدئ يكشف عنها. يقدسها أكثر مما يبارك صور القديسين، والرسل الخالدة. وقد حدثنى بعضهم أنه، وتلاميذه يشرّحون الجثث التى يبتاعها من حراس المستشفى بأبهظ الأثمان ليدرس عليها خفايا الجسد البشرى من أعصاب وعضلات ادعاء التثبت من فنه والتضلع فيه؛ ولكنه فى الحقيقة يفعل كل هذا إرضاء لمساعده وناصحه، عدو مخلصنا القديم، الشيطان الذى يوصى إليه بالشعوذة السوداء. لقد أغوى ذلك الضال بنتك الطاهرة واجتذب قلبها برقته الزائفة، وسحره الجهنمى وأساليبه الشيطانية »

بمثل هذا الحديث مضى ماتيو يخيف مونا أرسولا ليحملها على الاعتقاد أنه على حق. ولما أن أنبأت ابنتها أنها فى حالة رفضها الاقتران بفرانسسكو ديلاجولانتى سيكف عمها حتما عن إعطائهما راتبهما الشهرى. أترع الحزن واليأس قلب الفتاة؛ بيد أنها رضخت لحظها وجمعت أمرها على إطاعة عمها

وفى أثناء تلك السنة انقضت على فلورنسا رزيئة فادحة، مصيبة تنبأ بها المنجمون من قبل، لأن كوكب المريخ دنا منه كوكبا زحل والعقرب دنواً كبيراً. كان عدد كبير من تجار الشرق قد أقبلوا يحملون بين طيات أقمشتهم الهندية ميكروبات الطاعون وتقدمت المواكب الرهيبة فى الطرقات يرددون المزامير حاملين صور جميع القديسين، وسُنّت القوانين تحرم تفريغ القمامات فى المدينة وحرم على الدبايغ والمذابح تصريف فضلاتها فى « آرنو » وضرب نطاق حول المرضى خشية اختلاطهم بالأصحاء وخوفاً من التعرض لعقاب الغرامة أو السجن بل الموت أحياناً، حرص الناس ألا يتركوا فى بيوتهم أولئك الذين ماتوا أثناء الليل إلى شروق الشمس

حتى ولو كان سبب الموت أدواء أخرى

وانبث لذلك مفتشون يحرسون خلال الطرقات والسبل قارعين الأبواب سائلين عن مرضى في البيوت أو موتى . بل قد يفتشون البيت بأنفسهم إذا ساورتهم الشكوك والريب . وكانت ترى هنا وهناك العربات الملطخة بالقار بين دخان المشاعل يحف بها رجال في ثياب سود صامتين ملثمين يحملون الخطاطيف التي يلتقطون بها ضحايا الطاعون ويلقون بها في العربات اتقاء مسها . وكان ثمة إشاعات أن هؤلاء الطغاة العتاة الذين يطلق عليهم الناس لقب « الشياطين السود » كانوا يلتقطون الأجساد التي ما زال بها رمق كيلا يعودوا إلى المكان عينه مرة ثانية

وظل الطاعون الذي انتشر في أواخر الصيف ، منتشراً حتى وقت متأخر من الخريف ، بل حتى فصل الشتاء الذي أقبل مبكراً هذه السنة ، ولم يمح آثاره ولم يقتل جراثيمه . وهرع أغنياء فلورنسا الذين لا تربطهم مهام قوية بالمدينة إلى بيوتهم الريفية حيث الجو طاهر نقي من جراثيم الطاعون

وخوفاً من أن تغير جنيرفا رأيها تعجل العم ماثيو يوم الزفاف بحجة أن مونا أرسولا وبنتها يجب أن تبرحا المدينة بأسرع ما يمكن ، وأن فرنسسكو دبلاجولانتي قد عرض أن يأخذ جنيرفا وأمها إلى جوسقه الجميل عند سفح « مونت ألبانو »

كانت هذه رغبة ماثيو ، وقد تحققت ، إذ تم الاتفاق على أن تكون ليلة العرس بعد أيام قلائل . فأقيمت الحفلة دون جلبة ولا ضوضاء كما كان سائداً في تلك الأيام الحزينة . وفي ليلة العرس وقفت جنيرفا كالخيال ممتقعة شاحبة يعلو قسمات وجهها هدوء رهيب . بيد أن عمها أمل أن تزول تلك الأوهام ، أوهام الشباب عقب الزفاف . وأن فرنسسكو سيعرف كيف يكتسب حب عروسه الصغيرة

ولكن آماله لم تكن لتتحقق . فمنذ ما غادرت العروس الصغيرة الكنيسة ودخلت بيت زوجها بدأت تحس دواراً . وفجأة سقطت على الأرض كأنها ماتت . وبلغ ظن الكل أولاً أنها في غشية وحاولوا أن يثيبوا إليها رشدها ؛ بيد أن عينيها ظلتا مسبلتين وأخذ تنفسها يضعف ووجها وسائر بدنها يتحولان إلى صفرة الموت ، وسرت البرودة في أطرافها . وجاء طبيب بعد بضع ساعات (في ذلك الحين كان الناس يستدعون الأطباء رغماً عنهم وفي طي الخفاء كيلا يتسرب في المدينة خبر وجود مريض بالطاعون في البيت) ؛ ولكنه عند ما أدني مرآة من فم جنيرفا السلوبة الحياة لم يبد عليها أي أثر لأخف نفس

هنالك اعتقد الجميع والحسرة تملأ نفوسهم والحزن يخيم على رؤسهم أن جنيرفا قد ماتت حقا ولغط الجيران أن الله قد صب جام عقابه على المرى لإقامته الزفاف في مثل ذلك الوقت غير اللائق . وأن عروس فرنسسكو الصغيرة نالها الطاعون فماتت عقب عودتها من الكنيسة . وقد انتشرت هذه الاشاعات سريعاً لأن أهل الفتاة كانوا في خوف من زيارة « الشياطين السود » لذلك كتموا خبر غشية الفتاة وموتها حتى اللحظة الأخيرة . ولكن عندما أقبل المساء أتى المفتشون الذين وقفوا على دقائق الحال من الجيران وطلبوا إلى أهل الميت أن يسلموهم جثة جنيرفا أو يدفنوها تواً ؛ بيد أنهم حينما أخذوا « رشوة » جسيمة ، قبلوا أن يتركوا الجثة في بيت فرنسسكو حتى مساء اليوم التالي .

لم يبق أحد من الأهل في مرية من موت جنيرفا

الا مربيتها العجوز التي رميها الجميع بالجهل والغباء . وتوسلت إليهم في بكاء مؤلم ألا يدفنوا جنيرفا مؤكدة أن الطبيب مخطىء ، فإن جنيرفا لم تمت ، بل أنها في نوم عميق . وأقسمت أنها حينما وضعت يدها على قلب عزيزتها (أحست أن القلب يخفق في ضعف ، في ضعف ، بل أضعف من رفيف جناح فراشة)

وتصرم اليوم ولم تُبد جنيرفا أى دليل على حياتها فطويت في أكفانها ووضعت في نعشها ، ثم حملت إلى الكتدرائية . وكان القبر الجاف الخشن مرصوفة أرضه بالآجر التوسكاني ، جاثماً بين بابي الكنيسة في إحدى ساحات الجبانة تحت ظل أشجار السرو الشماء العالية ، بين قبور أشراف فلورنسا وأعيانها . وقد دفع مانيو في ذلك القبر ثمناً باهظاً . ولكن المال أخذ من البائنة التي كانت ستدفعها جنيرفا . وكانت عملية الدفن يحف بها المهابة والوقار . إذ أضيئت الشموع وأعطى كل فقير — لذكرى جنيرفا — كيلاً من زيت الزيتون مقابل نصف « صولدو [1] » . وبالرغم من برودة الجو وهول الطاعون كان في الجنازة جمع غفير . ولم يستطع البعض — حتى الغرباء منهم — حبس دموعهم حينما سمعوا قصة موت العروس الصغيرة ، وراحوا يتمتمون بجملة بترارك الحلوة

« يبدو الموت جميلاً على وجهها الجميل » .

وقد ألقى فرنسسكو على قبرها رثاء مقتبساً ليس من اللاتينية فحسب ، بل من الإغريقية لأفلاطون وهوميرس ، وقد كان ذلك حدثاً جديداً في هذه الأيام ، أخذ بألباب جميع المنصتين إليه حتى أولئك الذين لا يفهمون الإغريقية .

وقد حدث بعض الاضطراب في أخريات الحفل حينما حمل النعش من الكتدرائية إلى الرمس لتوديعها بالقبلة الأخيرة . إذ شق رجل شاحب الوجه في عباءة حريرية طريقه إلى الفتاة المسجاة ، ورفع عن وجهها غطاءه ، وبدأ يحدق فيها بنظرات ثابتة . فطُلب إليه أن يتنحى ويبتعد ، وأُخبر أنه عار عليه — وهو غريب — أن يدنو من جنيرفا ، ولما يتركها أهلها بعد . فلما سمع الرجل المتقع أنه وُصف بالغريب ، وأن مانيو وفرنسسكو قد نَمِيَتا بالأهل ، ابتسم في مرارة وقبَّل الفتاة الميتة في ثغرها وأعاد الغطاء على وجهها ، ثم ابتعد عن الجمع دون أن ينبس . فدار الهمس بين المحتشدين ، وأشاروا إليه مرددين اسم انتونيو دى روندنيللى ، الرجل الذي أحبته جنيرفا ، والذي ماتت في سبيل حبه .

واختفت بقايا الشفق وانتهت الجنازة ، وبدأ الجمع في الانصراف . فرغبت مونا أرسولا في قضاء الليل بجانب النعش ، فعارضها العم مانيو . إذ أنها بلغت من الحزن مبلغاً كان يخشى على حياتها من قسوته . فقط بقى الأخ ماريانو — وهو راهب دومنيكانى — بجوار القبر ليقرأ الصلوات على الميت

وانقضت بضع ساعات . وفي هدوء الليل الشامل لم يكن يُسمع سوى صوت الراهب ودقات الساعة من أعلى برج « جيوتو » من حين لحين . وأحس الأخ ماريانو بعد منتصف الليل بظمأ شديد . فسحب زجاجة من الخمر في عنف وأمال رأسه إلى الوراء ، وتناول بضع جرعات قليلة بسرور ولذة . ثم خيل إليه أنه سمع زفرة ، فأرهف السمع فبلغت سمعه زفرة أخرى . وفي تلك المرة بدا له كأن غطاء وجه الفتاة قد اهتز وارتعش . فتملكه رعب شديد بعث

(١) « الصولدو » عملة إيطالية

فى هيكله الرجفة . ولما كان قليل الاختبار فى مثل تلك الأمور ، ويعلم جيداً أنه حتى من خبروا هذه الحالات تطغى على أذهانهم خيالات وأوهام ، حين ينفردون بجثة أثناء الليل . فقد عوّل على ألاّ يأتى بالاً إلى الأمر ، ورسم علامة الصليب ثم مضى يردد الصلاة بصوت جهورى طنان .

وانقطع صوت الراهب فجأة ، وتصلب مكانه ، وثبتت عيناه الجاحظتان على وجه الفتاة الميتة ، لم تكن هذه المرة زفرة ، بل أنين أتى من بين شفتيها . ولم يبق لدى الأخ ماريانو أدنى شك بعد ذلك ، إذ رأى صدر الفتاة يعلو ويهبط ببطء ، فيهز الغطاء الشفاف الذى على وجهها ، كانت تتنفس ، فرسم علامة الصليب وهو يرتعد من الرأس إلى القدم . ثم اندفع نحو الباب ، وقفز فصار خارج القبر . ولما استعاد نفسه بفعل الهواء البارد حمل ما حدث على الوهم والتخيل وعاد إلى الباب مستعيذاً بالعذراء ، ونظر إلى جوف المقبرة ؛ فانفجرت من بين شفتيه صرخة مفزعة .

كانت الفتاة الميتة قد استوت جالسة فى نعشها بعينين مفتوحتين ، فأسرع الأخ ماريانو يعدو عبر الجبانة دون أن يلتفت خلفه . ثم عبر ساحة سان جيوفانى ثم طريق « ربكاسولى » . فقط كان يُسمع وقع (صندله) الخشبى على الشارع المرصوف المغطى بالثلج فى سكون الليل الرهيب .

وعندما أفاقت جنيرفا الرى من نومها ، أو من غيبوبتها التى تشبه الموت ، راحت تفحص نعشها بعينين يشع منهما الخبل ، وانبث فيهما الرعب حينما أدركت أنهـا دفنت حية . وبقوة يائسة قامت من نعشها وأحكمت أكفانها حول جسدها . ثم اتجهت إلى الباب الذى تركه الراهب مفتوحاً ، وخرجت إلى الجبانة . ثم إلى الساحة أمام الكتدرائية . وكانت أشعة القمر تنساب من بين السحب السريعة التى كانت الرياح تمزقها شر ممزق ، وبدا برج « جيوتو » الرخامى فى ضوء القمر منتصباً فى صلابة وشمم . وكانت أفكار جنيرفا مرتبكة مضطربة ورأسها يمايل ويترنح وقد خيل إليها أنها والبرج سيحملان إلى السحب المغمورة بضوء القمر . لم تدرك تماماً إذا ما كانت حية أو ميتة ، إذا ما كان هذا حلماً أم يقظة .

وسارت على غير هدًى فى شـوارع مقفرة ساكنة . واسترعى بصرها بيت تعرفه ، فتوقفت ثم سارت إليه وطرقت الباب . كان بيت عمها ماتيو

وبالرغم من هذه الساعة المتأخرة ، لم يكن تاجر الصوف قد آوى إلى فراشه . كان فى انتظار رسول من القسطنطينية أبر إخطار أتاه . وقد كانت بضع إشاعات قد بلغت العم ماتيو تدور حول غرق سفن كثيرة على مقربة من ساحل « ليفورنو » وخشى أن تكون سـفينتاه ضمنها ، وأحس وهو فى انتظار رسوله بالجوع . فأمر خادمه « نينسيا » . ـ وهى فتاة جميلة ذات شعر أحمر وثنايا بيض سواحر ـ أن تجهز له ديكاً محمراً . وكان العم ماتيو عزباً عجوزاً وفى تلك الليلة كان يجلس فى المطبخ بجوار النيران حيث كان البرد شديداً فى بقية الحجرات . وكانت نينسيا تجهز الديك بوجه مورد وذراعين مشمرين . وكان لهيب النار ينعكس على الخزف البراق والأباريق المغسولة والصحون التى استوت على الرفوف . وقال ماتيو وهو يرهف السمع :

— نينسيا . أما سمعت شيئاً ؟

— إنها الريح . سوف لا أذهب . لقد أرسلتنى إلى الخارج ثلاث مرات .

— وما ذلك ريح . امرؤ يطرق الباب . إنه الرسول . إذهبى وافتحى الباب حالاً .

فبدأت نيتسيا المكتنزة تنزل الدرج الخشبى فى تراخ وكسل بينما وقف العم ماتيو على رأس السلم ممسكاً بمصباح ينير لها السبيل . وسألت الخادم

— من هناك ؟ ... فأجاب صوت خافت من وراء الباب :

— إنه ... إنه أنا جنيرفا ألمرى ... فتمتمت الخادم فى ذعر :

— يسوع .. يسو ...

وابتدأت ساقاها ترتعدان ، ولتتقذ نفسها من السقوط تشبثت بسياج السلم ...

واصفر وجه ماتيو وسقط المصباح من يده .

وتوسلت جنيرفا قائلة :

— نيتسيا . نيتسيا . افتحى الباب . أسرعى . دعينى أدفىء نفسى . إننى مقرورة أنبئى عمى أنه أنا

وبالرغم من بدانة الخادم ، اندفعت نحو السلم تجرى عليه صاعدة حتى سُمع للدرج صرير تحت قدميها :

— هو ذا رسولك الذى تنتظر . لقد أنبأتك أنه خير لك أن تذهب وتنام كمسيحى مؤمن ... أوه ! أوه ! يطرق ثانية ... أتسمع ؟ إن الروح المسكين يئن ويتألم . كم هو مؤلم أنينه . آه يا إلهى ! أنقذنا وارحمنا نحن المذنبين صل من أجلنا أى قديستنا اورانس ... فقال ماتيو فى تردد :

— اسمعى يا نيتسيا . سأذهب لأرى ماذا هناك من يدرى ... ربما ... فصرخت نيتسيا وهى تشبك يديها :

— ماذا ستفعل أيضاً ... فكر فيه فقط ... يا للرجل الشجاع ! أو هل تظن أنى أدعك تذهب ؟ إنك ترتعد كما لو كنت ذاهباً إلى الآخرة ... هيه ؟ ليس ثمة فائدة من ذهابك . إبق هنا واحمد الله أنْ لم يحدث لنا أسوأ من هذا

وأخذت نيتسيا زجاجة ملأى بالماء المقدس ورشت منها على الباب الخارجى وعلى أرض البيت والسلم والمطبخ ، وعلى ماتيو نفسه ... وأطاع الخادمَ ولم يُخَيِّبْ رجاءها ، زعماً منه أنها أكثر معرفة فى التصرف مع الأرواح . واستحلفت نيتسيا الروح بصوت مرتفع قائلة :

— أيها الروح المبارك . إذهب بربك .. الموتى للموتى جعل الله مثواك دار الحق

فلما أن سمعت جنيرفا أنها خوطبت كأنها ميتة أدركت أنه ليس ثمة داع لبقائها هنا ، فنهضت من جلستها على مدخل البيت حيث كانت قد سقطت إعياء ، وضربت فى الطريق تبحث عن مأوى

سارت بقدميها المتجمدتين فى تعب وإرهاق حتى وصلت إلى الشارع المجاور حيث يقوم منزل فرنسسكو ديلا جولانتى

كان سكرتير جمهورية فلورنسا فى هذا الوقت يكتب رسالة فلسفية باللاتينية إلى صديق له فى ميلانو يدعى ميشيو ديللو برتى كان مولعاً هو أيضاً بالملاحم القديمة . كانت رسالته فى اللاهوت عنوانها : « خطاب المذكرى الروح التى ارتبطت برابطة الموت ، روح زوجتى الحبيبة ، جنيرفا ألمرى » . ومضى فرنسسكو يقارن بين مذهب أرسطو ومذهب أفلاطون ، مُفَنِّداً وجهة نظر توماس أكويناس الذى يجزم بأن فلسفة أرسطو تتفق وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية من ناحية الجنة والنار ، بينما راح فرنسسكو يدلل فى براعة ومنطق سليم أن أرسطو

كان في الخفاء شاكاً ملحداً وأن « أفلاطون » المعجب الكبير بالآلهة هو الذى كان يتمشى مع تعاليم الكنيسة المسيحية

وكان مصباحه الزيتي المثبت على مكتبه إلى جانب عدد كبير من الأدراج ، وأقسام الورق والحبر ، والأقلام ، يحترق في لهب هادىء لطيف . وكان المصباح عبارة عن تمثال صغير « لتريتون[1] » يعانق إحدى غواني البحر ، وهذا يدل على ولع فرنسسكو طوال حياته باقتناء التحف التى على هيئة النماذج القديمة وكان على المكتب أيضاً تماثيل من ذهب تمثل رقص كيوبيد ، وملائكة تحمل أكاليل من زهور الجنة ينعكس بريقها على صفحات القراطيس الناعمة كالحرير ، الصلبة كالعاج .

وكان فرنسسكو يهم بتحليل نقطة لاهوتية من مذهب تقمص الأرواح . ويُلمّح في حذق ، ومهارة إلى مذهب « البيثاجوريان[2] » الذى يحرم أكل البقول زعماً أنها تحتوى على أرواح الأولين — عند ما سمع فجأة طرقاً على الباب . فقطب حاجبيه ، إذ كان لا يطيق أى إزعاج إبان عمله . على أية ، فقد ذهب إلى النافذة وفتحها ، ثم أطل منها إلى الشارع وعلى ضوء القمر الشاحب رأى جينرفا ملتفة في أكفانها .

فنسى فرنسسكو أفلاطون وارسطاليس وأغلق النافذة في سرعة حتى أن جينرفا لم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة . ثم ابتدأ يردد صلاة العذراء ، ورسم علامة الصليب في رعب هائل مثل نينسيا ؛ بيد أنه تمالك نفسه سريعاً . وخجل للرعب الذى ران على قلبه حينما تذكر ما قاله بلوتونيس الأسكندرى ، وبروكلس عن ظهور الموتى ، تمالك نفسه تواً وأطل من النافذة وقال في صوت ثابت :

— إذهب سواء أكنت روحاً سماوياً أم روحاً أرضياً . إذهب إلى حيث كنت لأنك تحاول عبثاً أن تخيف ذلك الذى استنار عقله بالفلسفة الحقة . قد تستطيع أن تخدع عيني الظاهرتين ؛ ولكن عبثاً تحاول خداع عيني عقلي وإدراكي . إذهب بسلام . الموتى للموتى .

ثم أغلق النافذة جاعلا أمره ألا يفتحها ثانية حتى ولو أقبلت فرقة بأكملها من الخيالات والأطياف البائسة تقرع الباب .

فشرعت جينرفا تضرب في المسير . ولما كانت على مقربة من السوق القديم فقد ألفت نفسها عند مأوى أمها .

كانت مونا أرسولا جاثية أمام الصليب وبجوارها وقف الراهب جيا كومو شاحب الوجه ضعيفاً واهناً من أثر الصيام . فرفعت عينيها الجزعتين إليه وقالت :

— ماذا أصنع يا أبت ؟ ساعدني . لا أحس صبراً ولا خضوعاً . ولا أشعر في نفسي رغبة إلى الصلاة . يبدو أن الله خذلني ، واجتواني وهجرني ، وقضى على روحي بالهلاك . فقال الراهب يحثها على الصبر :

— أطيعي الله في كل شيء حتى النهاية . لاتتذمرى . هدئي من صوت جسدك المتمرد . فإن حبك المحض لابنتك إن هو إلا حب جسدي لا روحي . ليس الحزن لأن جسدها مات . بل الحزن لأنها مثلت أمام الله ولما تتب توبة صادقة . خطيئة

(١) تريتون : نصف إله ، أحد ناخى البوق من أتباع نبتون إله البحار .

(٢) بيثاجوارس : فيلسوف إغريقى قديم عاش سنة ٥٢٣ ق . م

كبرى وذنب عظيم . وفى تلك اللحظة سمع طرق على الباب :

— أمى . أمى . افتحى سريعاً . إنه أنا . دعينى أدخل . أسرعى

— جنيرفا !

قالتها مونا أرسولا فى دهشة عنيفة وهمت بالاندفاع نحو بنتها . ولكن الراهب تصدى لها :

— أين تذهبين ؟ إن ابنتك الآن فى قبرها ميتة . . . ولن تقوم حتى يوم الحساب . إنْ هذا إلا الروح الشريرة تخدعك بصوت ابنتك . بصوت جسدك ودمك . توبى وصلى . صلى قبل أن يفوت الأوان وتولى الفرصة . صلى من أجل نفسك وروح جنيرفا الخاطئة . هذا ما ينقذكما من الخسران المبين

— أمى . ألا تسمعين ، ألا تعرفين صوتى ؟ إنه أنا . إنى على قيد الحياة ... لست ميتة !

— دعنى أذهب إليها ، أى أبى . دعنى

— اذهبى . ولتعلمى أنك بذلك لا تعرضين نفسك للهلاك فحسب ، بل روح جنيرفا أيضاً . . . عليك لعنة الله فى الدنيا والآخرة

وامتلأ وجه القس بآيات البغض الشديد وتوهجت عيناه ببريق من النار غريب ، مما جعل مونا أرسولا تقف خائفة وجلة . ثم شبكت يديها وجثت تحت قدميه تصلى

فاتجه الراهب جيا كومو نحو الباب ورسم إشارة الصليب وقال :

— باسم الأب والابن والروح القدس ... أستحلفك بدم المسيح الذى صلب أن تختفى ... أن تذهبى أيتها الملعونة . إنها أرض مقدسة . أى إلهى لا تقدنا إلى الغواية والضلال بل خلصنا من السوء والوبال ...

— أمى ... أمى ... رحمة بى ... إنى أموت

وهمت الأم مرة ثانية ومدت ذراعيها نحو ابنتها بيد أن الراهب ، فى شحوب كالموتى ، وقف حائلاً بينهما ...

فسقطت جنيرفا على الأرض وأحست البرد يكاد يقتلها وعقدت يديها حول ركبتيها ونكست رأسها ثم عقـدت النية ألا تقوم ثانية ولا تتحرك حتى تموت ... ومضت تفكر « ليس للموتى أن يعودوا إلى الأحياء » ثم ذكرت أنتونيو فقالت فى نفسها : « أيحتمل أن ينبذنى أيضاً ؟ » ... لقد فكرت فيه من قبـل ؛ ولـكنها شعرت بالخجل يطغى عليها ، إذ أنها لم تشأ أن تذهب إليه ليلاً بمفردها وهى ذات بعل ... ولـكنها الآن ميتة أمام الأحياء

واختفى القمر ، واكتست الجبـال بالثلج ، وانتصبت شاحبة أمام الصبح السافر . ومن مجلسها فى مدخل بيت أمها وقفت جنيرفا ، ثم اتجهت إلى بيت غريب بعد إذ ضاقت بها بيوت الأهل والأقارب

وكان أنتونيو قد قضى الليل كله فى صنع تمثال من الشمع لجنيرفا . لم ينتبه إلى مرور الوقت وكيف تسرب الضوء البارد ، ضوء صباح الشتاء الأزرق ، إلى الغرفة من خلال النافذة . وكان يساعده فى عمله تلميذه المقرب بارتولينو وهو شاب فى السابعة عشرة من عمره ذو شعر ناعم ووجه كوجوه الفتيات

وكان وجه المثال هادئاً . خيل إليه أنه يعيد الحياة إلى المائتة ويهبها بقاء جديداً . وبدت الجفون كأنها ستهتز وتنفتح ، والصدر كأنه سيعلو ويهبط وكأن الدم الحار يتدفق فى عروقها الجميلة

وانتهى من عمله ؛ وبينما كان يحاول أن يرسم على شفتى تمثال جنـيرفا ابتسامة طاهرة ، إذ سمع طرقاً على الباب . فقال دون أن يترك عمله :

— بارتولينو ! افتح الباب

فذهب التلميذ إلى الباب وسأل :

— من هناك ؟

فأجابه صوت كصوت نسيم المساء لا يكاد يسمع :

— أنا جنيرفا ألري

قفز بارتولينو إلى أقصى مكان فى الغرفة شاحباً مرتعداً ، وراح يهمهم وهو يرسم علامة الصليب : « الميتة ... ! »

بيد أن أنتونيو عرف صوت حبيبته فاندفع إلى بارتولينو وخطف منه المفتاح خطفاً فعاجله التلميذ قائلاً وأسنانه تصطك:

— فكر فى نفسك يا أنتونيو . ماذا أنت صانع ؟

فأسرع أنتونيو نحو الباب وفتحه ؛ فألفى جنيرفا ملقاة على عتبته كأنها جثة هامدة ، وقد تجمد الطل على خصلات شعرها الناعم ، ولكنه لم يحس أى خوف إذ كان قلبه مفعما بحنو شديد . انحنى فوقها تتناثر كلمات الحب من فيه . ثم حملها وعاد إلى مثواه .

أرقدها على بضع وسائد وغطاها بأحسن غطاء لديه ، ثم بعث بارتولينو إلى السيدة العجوز التى استأجر منها غرفة عمله . ثم أوقد ناراً فى الموقد وأدفأ عليها بعض الخمر وسقاها منه قطرات . فتنفست بعد ذلك فى راحة وسهولة وهى وإن كانت لم تستطع الكلام ، إلا أنها فتحت عينيها . فامتلأ قلب أنتونيو بالفرح ، وقال لها وهو يذرع الغرفة غدوا ورواحا :

— ستُقبل المرأة حالاً ، لقد دبرت كل شىء . فقط اغفرى لى تلك الفوضى التى ترين ياسيدتى جنيرفا

وأنزل أنتونيو السلة خجلان حيران وأخرج منها بعض المال ناوله بارتولينو وأخبره أن يسرع إلى السوق ليشترى لحما وخبزاً وخضراً لطعام الافطار. ولما أقبلت المرأة العجوز ، أمرها أن تهىء حساء فروج ساخن .

وأسرع التلميذ إلى السوق بأسرع ما فى مكنته ، بينا ذهبت العجوز تذبح فروجاً وبقى أنتونيو مع جنيرفا وحده . فنادته ، فلما جثا بجوارها حدثته بكل ما مر بها من حوادث ، ثم عقّبت قائلة :

— أوه ياعزيزى ! أنت وحدك الذى لم تخف حينما جئتك ميتة . أنت وحدك الذى يحبنى حباً صادقاً

فسألها أنتونيو : هل أستدعى أهلك ؟ عمك ، وأمك ، أو زوجك ؟

— ليس لى أهل . ليس لى زوج ولا عم ولا أم . إنهم جميعاً غرباء إلا إياك . إننى ميتة فى نظرهم ... ولكنى على قيد الحياة فى نظرك أنت ... وأنا لك .

وبدأت أشعة الشمس الأولى تنصب فى الحجرة فتبسمت له جنيرفا . وكان لون الحياة يفىء إلى خديها كلما ترجلت الشمس . وجرى الدم حاراً فى عروقها وحينما انحنى أنتونيو عليها ، وضمها إليه وقبلها فى ثغرها ، أحست كأن الشمس تعيد إليها الحياة ، وتهبها حياة أخرى خالدة . وهمست تقول له :

— أنتونيو ! تبارك الموت الذى علمنا الحب . تبارك الحب . إنه أقوى من الموت .

محمد عبد الفتاح محمد

صدر كتاب

قافلة الأيام

مجموعة من القصص المصرى الحديث

تأليف

عبد اللطيف [illegible]

يباع بخمسة قروش بجميع المكتبات بالعالم العربى

وبمكتبة النهضة المصرية